فكرة العمر

- نار علي جبل الشريف...
- السلطان عبد الحميد في منقباد...
- أسود علينا عبيد للإنجليز...
- برقية من تشمبرلين ...
- رفضنا تسلم سلاحنا للإنجليز...
- انقلاب عسكري في مرسي مطروح...

www.anwarsadat.org

يظن كثير من الناس أن هذا الثورة، دبر لها تشكيل من الضباط أثــر حــادث معــين جمعهم علي هدف وتدبير...

وفي أجواء الظنون، تجد الإشاعات كثيرا من نقط الارتكاز. تجد النقطة الأولى فــي حرب فلسطين.. بين أشلاء الضحايا و خيانات فاروق وعصابته...

وتجد النقطة الثانية، في تحقيقات الأسلحة الفاسدة وتدخل الملك لحفظ الدعوى بالنسبة لحاشيته..

وتجد النقطة الثالثة، في تصرفات الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا أنفــسهم فــي أحذية فاروق.

ولقد كانت كل هذه الأحداث فعلا، من الأحداث التي شغلت اهتمام الضباط الأحــرار، واستحثت خطاهم ولكن نشاة الثورة والتمهيد لها لم يستمد من حادث من الأحداث..

فقد نشأت هذه الثورة نشاة طبيعية، ونما التمهيد لها نموا طبيعيا لأنها كانت في كــل مراحلها، تفاعلا قويا بين ضمير جيش مصر، وضمير شعب مصر..

متي نشأت آذن.. وأين نشأت؟.

لنرجع إلي الوراء...

إلي عام 1938.

ولنذهب إلي منقباد...!

في هذه البيئة المصرية الخاصة، حيث يشعر المصري, بعناصره العريقة تملأ كيانــه وتسيطر عليه...

وفي الشتاء .. حين يقسو الجو، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بــين الأصــدقاء، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها علي عواء الرياح.

هناك حول نار في معسكر المناورات بتباب الشريف، كنا طرفا من كل ليلة.. أصدقاء كلهم صغار السن، صغار المناصب، كبار الآمال وافرو الشباب...

ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان... نتحرق طول النهار في الجبل، فكانمــأ الجبل مرآة تعكس نار القلوب...!

- وكانت في القلوب نار.. نار تنطفئ لان وقوها يتجد في كل لحظة من احساساتنا الشابة المرهفة... ومما يقع أمام أعينا كل يوم من الصباح إلي المساء...

كانت آمالنا الكبيرة، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث. فقد كنا ضباطا صغارا...

وكان لنا قواد...

وكان هناك أيضا... إنجليز...!

وكان قودانا المصريون لاعمل لهم ألا إذلالنا.. وألا الانحناء أمام الإنجليز...

وكنا نري هذا الوضع الكريه، فنحترق.. ونسخط.. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم...

وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري وفي تلك الأوضاع الهيبة ألا أن يسكت، ويكظم الغيظ، ويدفن النار في حشاه...

ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافا كبيرا

ففي جو من الصداقة والألفة، كنا نجلس فنمزح، ونذيب في هذا المرح، شــقاء اليــوم الطويل.. شقاء الجسد، وشقاء النفس وشقاء الغربة في جبل بعيد...

ولا ندري لماذا كان يتوسطنا دائما شاب رفيق وديع، عامر النفس بالصفا لم يكبرنــا سنا، ولا رتبة... فقد كنا جميعا أبناء" دفعة"!.

ولكنه كان الملتقى الذي جمع صداقتنا جميعا.. كنا نمرح، فنضحك عاليا، ونسخر من كل شئ.. ولا ترحم ألسنتنا أحدا.. وأحيان نغني..

وكان يصنع كل ما نصنع، ولكنه كان مع ذلك أيضا، يفكر... يفكــر بقلبــه، ويفكــر بوعيه.. ولا نكاد ننطلق في المرح، حتى نجد موضوع هادئة ...يثيره بيننــا جمــال عبــد الناصر...

وربما كان موضوعا شخصيا، وربما كان موضوعا عاما.. وربما كان ذكريات عابرة تمر به من حياته، فلا يلبث أن يستنبط منها فكرة أو رأيا، يثير بيننا مناقشة طويلة... هادئة...

وكان جمال يطوي نفسه علي كثير من الآلام الشخصية.. آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير، فأثرت وفاتها في حياته تأثيرا كبيرا..

لعل من أظهر عناصره شدة الحياء التي طبعت حياته حتى اليوم.. وكان إلي حيائه وهدوئه، يمثل الشخصية الكاملة لابناء الصعيد.. فهو يكيف الحياة بمثله" الصعيدية" الخاصة، فتجده وديعا رقيقا ملئ الصدر بالحنين، إذا لمست نفسه عاطفية قد لا تحرك أحدا من الناس .. ولكنه ينقلب أسدا هصورا، في اللحظة التي يشعر فيها بأن أحدث، فكر مجرد تفكير في الاعتداء عليه...

كان هذا الصديق بيننا، صورة حلوة للإخاء، والصداقة والاتزان، والهدوء والكرامة.. فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعا فكأنه في سكوته وهدوئه وطابعه الخاص، معني مجسم حي، لكل المعني والانفعالات التي يمكن استخلاصها، من تفاعل العواطف الإنسانية المتضاربة، في إنسان.. قست عليه الحياة...

وهكذا.. وحول هذا الرجل، التأمت مجموعة من الضباط الصغار الأصدقاء.. لم يكن يدري أنها ستكون نواة لمجموعة أكبر وأكبر، وأن اجتماعها في تلك التباب البعيدة لن يكون صدفة تمر. ويتشتت من بعدها الشمل الأصدقاء و إنما سيكون البدء الحقيقي لجهاد عنيف ومحن، كثيرة وعمل خطير.

وأن كنا قد أخذنا قودانا الكبار في ذلك الوقت بالسخرية العنيفة نطلقها في ساعات المرح فقد جاء اليوم الذي لم تعد فيه السخرية تغني عن الآمنا شيئا..

فقد القي

علينا القدر بقائد جديد للمنطقة لم يكد يصل إليها حتى شعرة بأن الذي وصل غاز من غزاة الترك!

كان يري نفسه بيننا مثلما يري السلطان عبد الحميد نفسه بين معالم أسطنبول الآمر الناهي الذي لا يناقش..

وأصبحت الحياة كريهة منذ اللحظة التي وصل فيها اللواء محمود سيف إلي منقباد.

كان هذا هو أسمه.. ولكننا كنا نسميه السلطان عبد الحميد.. لانه كان يفــرض علينــا تقاليد السلاطين.

و بدأنا نيأس من خدمة الجيش.. وأعد بغضنا استقالته فعلا من هذا الجيش الذي يضم بين قواده.. السلطان عبد الحميد!

ولكننا نري صبر جمال فنعجب.. ونري هدوءه وصموده لهذا الذل الطويــل فتــسكن نفوسنا، فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به في تلك الفترة السحيفة مــن حياتنــا فــي منقباد...

واشتدت الصلات بين كل منا، وبين المجموعة الكاملة.. حتى أصبح كل منــا يفكــر بعقلية الكل واصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة وأصبحت هذه الجماعة يومــا بعد يوم قيدا جديدا لتصرفاتنا، لان كل عمل يأتيه غرد منها سينسب إلي الجماعة شاءت أم لم تشأ.. عملت بالآمر أم لم تعلم..!

وأني لا ذكر تلك الأيام والليالي، أذكر مرحنا وآلامنا وأيام صداقتنا الجميلة الأولى... والسلطان عبد الحميد الذي أراد أن يذل رقابنا، كما ذل رقبته الإنجليز، وراح يتجــول فــي صورة شرسة مضحكة مبكية معا في منقباد.

اذكر كل هذا، واذكر أننا في خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب.. بدأنا نفكــر ذات ليلة...

وقال جمال:

أنهم الإنجليز أصل بلائنا كله...

وكانت مفتاح تفكير طويل.. لم يلبث أن اصبح خطي عملية متتابعة...كنا جميعا نعلم أن الإنجليز هم أصل بلائنا كله.. وكنا جميعا نكره الإنجليز.. ولكن هذه الكلمة قالها جمــال، وكأنه يحدد لنا رسالة كبري، لا ينبغي أن يتخلي عنها أحد.

وشهدت تباب الشريف، والنار الموقدة عليها عهدا مقدسا... ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار.

لم يربطهم بعمل معين، ولا بزمن محدد/ ولكن ربطهم.. بفكرة الحياة و بدأنا نجمع حولنا أنصارا لفكرة الحياة، كل منا يختبر عددا من الضباط الآخرين.. ويكون في محيطه خلية صغيرة يثير فيها هذه الفكرة، ويري مدي استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل...

و بدأنا نخطو الخطوة الأولى فنحسب لها حسابا ونلقي الكلمة فتفكر قبل إلقائها مرتين...

بدأنا ننزع من أعماقنا زهو الشباب، ونحل فيها الشعور بالمسئولية والاقتصاد في الأمل.

لقد قتل جمال فينا المرح، وكنا في شرخ الشباب!!

وجاء الدرس الأول الذي أفدناه بعد ذلك فأصبح درس حياتنا.. فقد مرت أيان قليلة.. كنا فيها لانزال في فترة تكويننا الأولى..وإذا بالشىء نسيناه جميعا يقع.. وكنا خليقين بتوقعه فإن ضابط الجيش لا يستقر في مكان واحد طويلا... وأن هي ألا لحظة مفاجئة، حتى كنا قد تفرقنا شعاعا.. واحد في الإسكندرية والثاني في طنطا، والثالث في القاهرة.. والرابع في مرسي مطروح...

وكانت الحرب إذ ذاك قد بدأت. والأعصاب توترت ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندي عالقة بزهرة أو تذوب في شعاع الصباح.

وافترقنا...

ولكن الحلم لم يذب.. والفرقة لم تستطيع أن تكون حاجزا بين هذه المجموعة في أقسى الظروف التي حلت بها.

وفهمنا مع الأيام هذا الدرس وهو أن الصداقة القوية عند ما تقوم علي نقاء وطهر وعندما تتركز أيضا حول فكرة فإنها قادرة علي الحياة مهما غرقت الحياة بين الأصدقاء. بل هي اكثر من ذلك تستطيع، وحدها صنع المعجزات.

والذي وقع بعد تلك الأيام، هو الأثر القوي لهذه الصداقة النقية التي ربطتنا.. فقد فرقت الظروف كثيرا، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيرا..

وكنا إذ نفترق لا تفارقنا الفكرة ولا عهد الجماعة، وكل ما هناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل، فيعمل.. يعمل مستقلا بإرادته في ظاهر الآمر، ولكنه في حقيقته يكون مقيدا بإرادة الجماعة المتمثلة في فكرتها الكبيرة.. وعهدها المقدس.

وقد تختفي من بيننا أسماء في كثير من الأوقات كما اختفي أسم جمال عبد الناصر عامين كاملين، بين ديسمبر 1939 وديسمبر 1941. إذ كان في هذه الفترة قد نقل غلي السودان.

ولكن الذي كان يبقي في ميدان العمل.. كان يعمل... يعمل بارداته ولكن باسم هذه الجماعة وفكرتها الأصلية ويعمل بارداته ولكنه يرجع إلي من يستطيع الرجوع إليه من جماعتنا.. في كل فرصة تواتيه لذلك...

ولم تعد الأيام تمر هينة ولا رفيقة فقد بدأت أحداث كثيرة تقع... بدأت بالحادث الأول عام 1940... وكان ميدانه ميدان القتال في مرسي مطروح.

كنا قد نقلنا جميعا من منقباد.. وتفرقت جماعتنا بين وحدات الجيش في مختلف أنحاء البلاد.. وبين السودان العزيز...

وقد كان السودان من نصيب جمال عبد الناصر فقد نقل من منقباد إلي أمبابة.. وبعد شهر واحد نقل إلي العلمين، وقضي هناك أربعة شهور، ثم نقل مرة أخري إلي أبي زعبل، ومنها إلي السودان...

وفي فترة تنقلات جمال جمع علي فكرة عدداً آخر من الضباط...

زكنا نحن أيضا نصنع مثل هذا...

ولم نكن نعرف علي درجة وجه التحديد ماذا سوف نعمل. لقد كان هدفنا أن نقوم بدورنا في تخليص البلاد من جنود الإنجليز ولم تكن الفرصة لذلك تسنح أثناء الحرب، وقد سيطر الإنجليز علي كل مرفق من مرافقنا.. واحتلوا جميع قواعدنا وطرق مواصلاتنا.. بل لقد كنا نحارب إلي جانبهم أيضا..

وسنحت أول فرصة لنا في مرسي مطروح.. ولكنها كانت فرصة مفاجئة لم تستطيع أن تحقق منها هدفا كبيرا.. واستطاعت هي أن تكشف للإنجليز عن وجود اتجاه عملي ضدهم في جيش مصر...

كانت نيران الحرب قد اقتربت كثيرا من أرضنا العزيزة.. فقد بدأت جيوش إيطاليا تغزو منطقة مرسي مطروح..

وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات:

قطاعين بريين، يحتلها الجيش المصري. وقطاع بحري يدافع عنه الإنجليز.. كنا نحارب.. رغم أن مصر لم تكن قد أعلنت الحرب.

وكانت سياط العذاب التي تلفعنا نحن الجنود والضباط، تتلاحق علينا مع الليل والنهار ومع الأحداث المتعاقبة التي تمر بها البلاد.

كان موقف مصر من هذه الحرب موقفا مائعا.. ولم يكن من السهل تحديده في صورة مفهومة واضحة.

وكان من المؤكد أن هذا الموقف أن تحدد، فلن تكون مصر هي التي تحدده علي التأكيد...

كانت سياسة مصر التي أعلنتها رئيس حكومتها عند إعلان الحرب هي سياسة " تجنيب مصر ويلات الحرب".

ولم تكن مصر تستطيع أن ترسم لنفسها سياسة أوضح من هذه أو أكثر جسما وتحديدا.. فقد كانت هناك المعاهدة.. وكانت جنود الاحتلال تملأ بلادنا، وطائراتهم تجثم علي صدور مطاراتنا وتنطلق منها إلي الميادين القريبة الحافلة بالموت... ودباباتهم تختال في شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه.. ومخازن ذخيرتهم ترصع أرجاء الوادي بالبارود والقنابل وأسلحة الدمار.. وكانت أرضنا فوق ذلك حقلا كبير يشرب حبات العرق من جباه آباءنا وأخواتنا ليخرجها قمحا للغاصبين..

وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده، هو الموقف الضنك.. فسياسة " تجنيب مصر ويلات الحرب" لم يكن معناها أننا لن نحارب فعلا .. وكان الذي يشقينا هو أن نسال أنفسنا: نحارب من أجل من ؟!

فهل كانت سياسة" تجنيب مصر ويلات الحرب" تحمل هذا المعني واضحا وترسم خطته كاملة إلي نهايتها!

لقد كانت تشير إلي شئ ، أو ترنو إلي

وهذا الشيء وهذا الأمل هو الذي فهمته مصر منها..

وفهمه الإنجليز أيضا

فهمته مصر، فحاولت أن تستبشر به وفهمه الإنجليز فأبرق رئيس وزرائهم" تشمبرلين " إلي سفير إنجلترا" كليرن" برقية قصيرة حاسمة:

أى: يجب أن تستقبل حكومة علي ماهر..

وكانت هذه البرقية كأنها القضاء الذي لا يرد.. فاستقالت فعلا حكومة علي ماهر، لأنها أشارت بسياستها إلي شئ ورنت إلي أمل، وفهم الإنجليز الشيء والأمل!

لم يكن أمر مصر أذن في يدها، بل كان في أيدي الإنجليز.. وكنا ننظر إلي المستقبل علي هذا الوجه، فلا يلبث أن يرتد إلي الماضي.. إلي الحرب العالمية الأولي التي سيقت فيها مواكب آبائنا مسخرين إلي ميادين القتال يحفرون الخنادق ليموتوا في أحشائها، ويحملونى الروث ليدفنوا تحت أكوامه، ويلعقون العرق ليوفروا كؤوس الشراب للإنجليز!

ويجلب الماضي صور يعضه بعضا، فلا يشير إلي بارقة أمل في مستقبل البلاد تحت هذه الأوضاع...

يجلب صورة الثورة المجيدة التي أشعلها الشعب عام 1919 فأطفأها زعماؤه يوم وصلوا إلي الحكم واصبحوا أحزابا.. مطايا للإنجليز...

www.anwarsadat.org

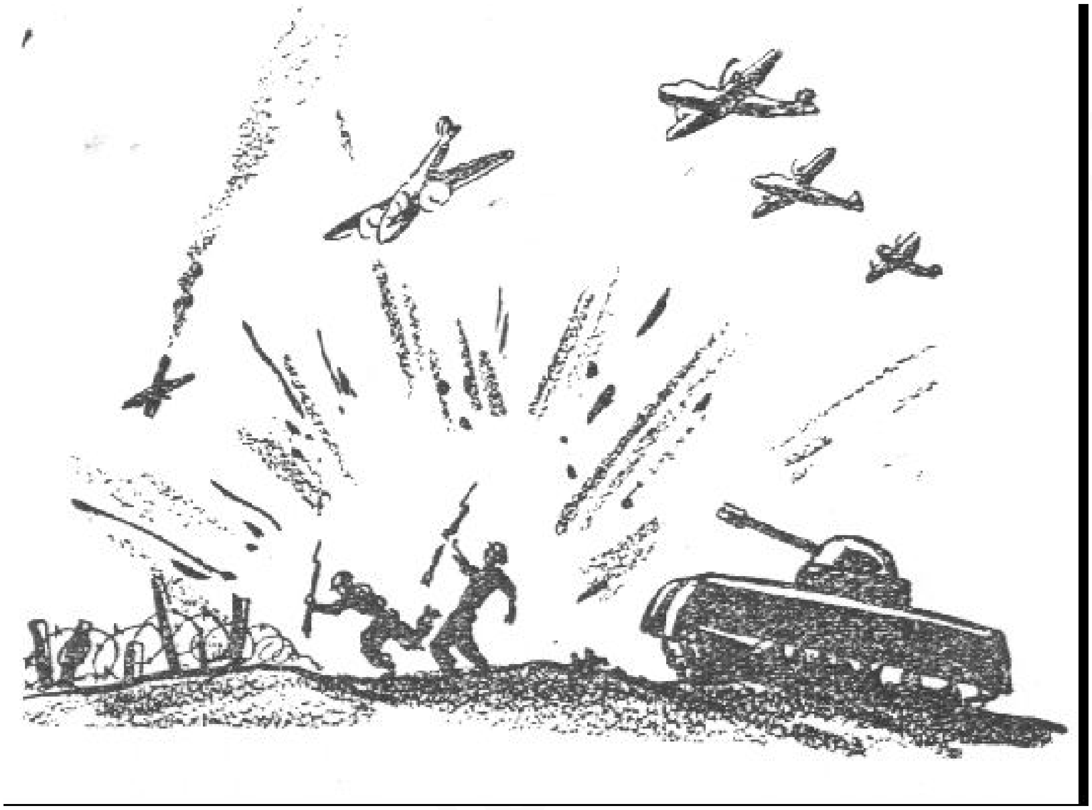

ويجلب صورة الثورة المجيدة التي أشعلها الشباب عام 1935 ليجمع الأحـزاب فـي حزب واحد لمصر، فاجتمعت الأحزاب في حزب في حزب واحد ليوقـع معاهـدة الـصداقة والتحالف مع الإنجليز!

ويجلب صور شقاء كثير! فقر، وعري، وانقسامات وتضحيات ودماء.. يتحالف فوق أنقاضها الزعماء والإنجليز!

وما تغير الزعماء

ولا خرج الإنجليز...

ولكن قامت الحرب.. وبدأت بوادر شقاء جديد.

ماض كله حسرات، ومستقبل كله مخاوف، وحرب قائمة لابد أن تصلاها، حتى فـي ظل" سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب".

و فجأة علمنا أن أوامر من قيادتنا ستصدر لنا.. وعلمنا هذه الأوامر أيضا وكانت هذه الأوامرــ تقضي بأن تنسحب الفرقتان المصريتان اللتان تقومان بالدفاع في القطاعين البريين لتحتلهما قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن المنطقة كلها.

وإلي هنا كانت الأوامر بسيطة يمكن قبولها، ولكن الشق الأخير فيها كان يقضي بــأن نترك سلاحنا، ونسلمه للقوات البريطانية التي ستحتل القطاعين وهاج الضباط وماجوا...

وتحرج الآمر جدا...

وصممنا علي ألا نترك سلاحنا.. ولو أقاضى ذلك أن نموت عن أخرنا.. وكنت أجــد في هذا الأجراء فرصة مناسبة،لتجعل من " فكرة الحياة" حقيقة مجسمة، يــشارك فــي حمــل أعبائها الجيش كله، والشعب كله أيضا .

وكنت أعتقد أن أي احتكاك منا بالإنجليز سيقفز بفكرة الحياة مائة عام إلي الأمام...

وبدأنا نضع خطة كان من زملائنا فيها البكباشي أحمد حسن الملحق العسكري الآن في روما، وجمع الضباط الصغار حتى رتبة يوزباشي بلا استثناء.

كانت قوتنا هناك قوة مختلطة، تسمي" القوة الحقيقية"... وكانت تتكون من خلاصــة الجيش المصري، تضم زهرة سلاح المدفعية وبقية الأسلحة الأخرى..

فوضعنا خطتنا علي أساس أن تعود هذه القوات، فتحتل وهي في طريقها إلي القاهرة

كل الموافق العامة، ثم تفرض حكومة علي ماهر مرة أخري، بعد استقالته المعروفة المدوية..

www.anwarsadat.org

كنا إذ ذاك في شهر سبتمبر، وكان علي ماهر قد استقال في شهر يوليو. وكان الشعور القومي ضد الإنجليز قد بلغ أقي مداه في البلاد..

وصدرت الأوامر لنا فعلا بالانسحاب وبترك أسلحتنا.. فرفضنا ترك السلاح وتقدمنا إلي القاهرة...

و لاكثر من سبب تبين لنا أن تنفيذ هذه الخطة سيكون وبالا علينا.. فقد أدركنا علي أساس تقدير الموقف، أننا لن نستطيع أن ننجح فيها إلي نهايتها...

فاكتفينا بالعودة بأسلحتنا كاملة.. واعتبرنا هذا نصرا كافيا لنا في مرحلى جهادنا الأولي.

وعلي الرغم من كل الأحاديث التي دارت بشأن هذه الخطة والتمهيدات التي كنا قد بدأنا نقوم فعلاً بها، فإن الإنجليز لم يكتشفوا منها أي شئ ..ولكنهم في الوقت نفسه أدركوا سيطرة روح العداء لهم علي ضباط الجيش الصفار.. وأيقنوا أن هذه الروح قد تلعب دورا أخطر من ذلك الدور في يوم قريب.

وبدأنا نحن نكون هدفا لعيون الإنجليز حيثما كنا.. في القاهرة أو في أي سلاح من أسلحة الجيش ننقل إليه...

والكسب الأكبر الذي كسبناه من هذه الحادثة، هو عودتنا إلي القاهرة فقد جمعتني القاهرة فورا بجميع أصدقاء منقباد.. ماعدا جمال الذي كان لا يزال في السودان...

وفي القاهرة بدأت اجتماعاتنا تتوالى وتتركز... واخذنا نفكر في شئ تقوم به علي أساس من الدراسة الكاملة، وبحيث يكون توقيته الكامل في أيدينا نحن لا في أيدي الظروف وحدها.

وكان في خيالنا رجلان.. نريد أن نتصل بهما، وأن نشركهما معنا في عملنا الكبير...

علي ماهر... صاحب البيان المشهور والاستقالة المدوية.

وعزيز المصري رئيس هيئة أركان حرب الجيش، وهو الرجل الذي وقــع اختيارنــا عليه عندئذ، لكي يقود ثورتنا.

وحاولنا أن نتصل بعلي ماهر، فلم نستطيع...

وحاولنا أن نتصل بعزيز المصري، فاستطعنا.. ولكنا اتصلنا فــي طريقنــا إليــه... بالإخوان المسلمين أيضا..!

www.anwarsadat.org